تيمة الموت في شعر الشابي

د/ بن علي قريش
جامعة سيدي بلعباس(الجزائر)

ملخص البحث :

ما لفت انتباهنا في شعر الشابي كثافة انتشار مفردات الموت بشكل متوازن عبر كثير من نصوصه الشعرية . و هذا يدل على انشغال حاد بالموت باعتباره لغزا ماورائيا و موضوعا للتفكير . فالموت عند الشابي كابوس مرعب لأنه يعني الاختفاء و النهاية و الحتمية التي تحوّل الأحلام الجميلة إلى سراب ، و لهذا تجاور الحديث عن الموت في شعر الشابي مع الحديث عن الحياة .فالخريف بالنسبة للطبيعة موت و الربيع حياة ، و الشيخوخة بالنسبة للإنسان موت ، و الشباب حياة . و هذه الحتمية تجعل الشابي يشعر بالاغتراب الروحي ، فيبحث عن الخلاص من الزمان إلى اللازمان بالحلم و الخيال و الشعر .فالشابي يعيش اللحظة الجميلة و نقيضها .

Résumé

Ce qui attira notre attention dans la poésie de chabbi ce fut l'abondance des vocables sinistre de façon équilibrée a travers ses textes poétiques ce qui inaugure son souci permanant de la mort , symbole du caractère surnaturel, sujet de la réflexion . la mort chez chabbi , est synonyme de la disparition et la fin inéluctable , celle-ci transforme les beaux rêves en mirage de telle sorte que la mort et vie voisinent constamment . pour la nature l'automne constitue la mort, et le printemps la vie, et pour l'être humain, la vieillesse est la mort, et la jeunesse est la vie. Cette fin fait que chabbi ressente la liaison spirituelle. Il se mit a rechercher l'issue salutaire du temporel vers l'atemporel a travers le rêve, l'imaginaire, et la poésie .chabbi vit l'instant et son contraire le bon moment et son opposé.

المقال:

يحيا الإنسان و يموت كما الكائنات كلها ،ولكن الإنسان هو الكائن الوحيد الذي يعرف أنه سيموت ،ولأنه يعرف أنه سيموت ، يرعبه الموت ،و يتوجس خيفة من كل ما يشير إلى الموت . و الحياة و الموت بديهيان ما ورائيان و لغزان قديمان [1]. على حد تعبير إمانويل سيرو emmanuelle cioran . والمهد (الحياة) يشبه اللحد (الموت).[2] وسرّ توجه الإنسان إلى الفن هو الخوف من الموت [3] أي الخوف من النهاية و عقبى المآل.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ومفردات الموت حاضرة حضورا قويا في شعر الشابي في كل مراحل حياته الإبداعية بشكل يسترعي الانتباه مثل مفردات :الموت ،الردى ، المنون ، القبر، الرمس، الأجداث،وغيرها من المفردات التي تحيل الذهن إلى الموت مثل مفردات : الخراب ، الدمار، الهدم، الجحيم، المأتم.

وهذا الحضور الذهني للموت يعبّر عن وعي الشابي الدائم بالموت فينقل مع تجربته الذاتية التجربة الانسانية و الانفعالية .

ويستمد الشابي تجربته ،من لحظة الانفعال الراهنة و الرؤيا الشعرية التي تخامر وجدانه ، فتتزاحم في ذهنه أسئلة الحياة والموت و البداية و الانتهاء ، فيحضر الموت و تغيب الحياة.

ويستند الشابي في تلك التجربة الى لحظة الانفعال التى تنتابه . فحين يستبد به الحزن والتمزق والضياع والاغتراب ، يحضر الموت ، وتغيب مسرات الحياة :

أرى هيكل الأيام ، يعلو مشيّدا ولابدّ أن يأتي على أُسّه الـهدمُ

فيصبح ما قد شيّده الله والورى خرابا ، كأن الكل في أمسه وهمُ

فقل لي:((ما جدوى الحياة وكربها وتلك التي تذوي ، وتلك التي تنمو[4]

إن ذات الشاعر تقف وحيدة في مواجهة المصير الفاجع ، والمآل الحتمي ، فيتضخم التمزق والضياع بالخراب الذي هو موت في النهاية . فتصبح الحياة التي مآلها الموت عبثا لأن الموت لم يكن قتلا يتم في لحظة قصيرة ولكنه موت نفسي وروحي ووجودي رغم أنه لحظة شعرية ، تقاوم فيها الذات الموت بالشعر .

قال الشابي يتحدث إلى الشعر:

فِيك ما في عوالمي من ظلام سرمديّ، و من صباح وليد[5]

ويهيمن معجم الموت في شعر الشابي ، فيحدّد به ، من خلال الألفاظ التي تنسجم . دلالة مع حالته النفسية وما يخامره من مشاعر و انفعالات فتضغط دلالتها على كيانة ، فيتعمق إحساسه بالمأساة ، فيرتسم الموت كابوسا مرعبا، يعصف بالحلم للحياة ، فتتهيأ ذات الشاعر للامتناع عن الاتصال بالحياة خارج(صوت المنون)و(صدى الأجداث) :

إنّ منْ أَصْغي إلى صوت المنونْ

و صدى الأجداثْ

ليس تستهويه ألحان الطيورْ

بين أزهار الربيع الساحرةْ[6]

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

يستشرف الشابي في الأبيات السابقة زمنا وجوديا ، يؤسسه الموت الذي يعبث باللحن الجميل الذي يحدث الانسجام في الذات وفي الفضاء الذي حول الذات :

كُفّ عن تلك الأغاني الباسمهْ

!أيها العصفورْ

فحياتي ألفتْ لحْن الأسى [7]

وتنفتح نصوص ديوان (أغاني الحياة) على عوالم من الإبداع الشعري في الموت ، يرافقها وعي وجودي بالزمن المفضى إلى الموت باعتباره لحظة تفضى إلى الانتهاء . فرغبة الشابي في الحياة ، ينغّصها عليه حضور(الأجداث) و(المنون). إذ يمنحان الذات شعورا مؤلما بتراجيدية الموت، ويظل مع ذلك مقبلا على الحياة . والإقبال على الحياة غريزة.

يقول الشابي :

إنّ ٱبنَ آدم في قرارة نفسه عَبدُ الحياة الصادق الايمانْ[8]

وهذه الرغبة في البقاء تضمر رغبة في الخوف من الموت و الخوف من الموت يحرّضه على إشباع معجمه الشعري بأكثر الألفاظ ، دلالة على الموت ، بتداعياته المأساوية .فالشابي ينتمي إلى مدرسة أدبية هي جماعة آبولو التي أشبعت النص الشعري بدلالات الموت .فقد انتزع الشابي من الطبيعة العذراء(الغاب) رموزا للحياة و الموت .فليس في الغاب مشهد يؤلم الشابي و يرعبه و يدخل الرهبة في نفسه من مشهد زهرة لوت عنقَها الرياحُ العاتية:

أو نحلة جرّها التيارُ مندفعا إلى البحار،تغنّي فوقها الدّيمُ

أوطائرا ساحرا قد انفجرت في مقلتيه جراح جمّة و دمُ[9]

وليس في الغاب مشهد رامز للحياة كما الزهور.تنبذ التحوّل و الصيرورة ،و(يعانقها شوق الحياة) كما يعانق الشابي. يقول:

ليتني كنتُ مثلَ الزهور بلا حياة واجمهْ[10]

وفي قصيدة (يا موت)[11] تقبع دلالات أخرى ، أهمها أن الموت ما زال يمارس حضوره في فكر الشابي و في وعيه الباطني . والحديث المباشر الى الموت ينمّ على أن الموت حاجة وجودية ، ومأساة وجودية في آن معا لأن ذات الشاعر تواجه تلك المأساة بمفردها :

يا موت ! ماذا تبتغي منّي وقد مزّقت صدري

ماذا تودّ ، وأنت قد سوّدت بالأحزان فكري

و تركتني في الكائنات أئن منفردا بإصري

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وأجوب صحراء الحياة ،أقول:((أين تراه قبري)) !

ماذا تودّ من المعذّب في الوجود بغير وزر؟[11].

و إذا كان لا مناص من الموت ، فلا مناص من عدم الخوف من الموت ، على الشباب و على الربيع ، بكل دلالاتهما :

والشّباب الحبيبُ شيخوخةٌ تَسْعى إلى الموت في طريق كؤودْ

والربيعُ الجميلُ في هاته الدّنيا خريفٌ يذوي رفيق الورودْ [12]

وعلى هذه الرؤية التي يستوى فيها ، بالموت ، الشباب بالشيخوخة ، والربيع بالخريف ، يصبح الموت يقينا مطلقا ، فيتقاطع ذلك مع نفس الشابي القانطة التي أعياها التفكير في المآل و البداية والنهاية :

قضيت أدوار الحياة مفكرا في الكائنات معذّبا مهمومَا

فوجدتُ أعراس الوجود مآتما ووجدتُ فردوس الزمان جحيمَا [13]

فالشابي يفقد الإحساس بالحياة في لحظة انفعالية ضاغطة .

و((الموت يعني غياب الإحساس))[14] ، فيتردى الشابي في قاع السوداوية التي غذاها إحساسه الرقيق ، و رومانتيكيته التي عاشها ، تجربة في الحياة ، وإنتماء شعريا .إذ أصبح الحلم بالقضاء على الكون ، احتفاءًا بوعيه الدائم بالموت وانتشاءًا بلحظة الغياب :

لوْ كان هذا الكونُ في قبضتي ألقيته في النّارِ نارِ الجحيـمْ

ما هذه الدنيا وهذا الورى و ذلك الأفقُ وتلك النجـومْ؟ !

النّارُ أَوْلى بعَبيد الأسى ومَسْرحِ الموْت وعش الهمـومْ[15]

وانتهى هذا الحضور القوي للموت في ذهن الشابي إلى ((تمزق ما ورائي وجودي))[16]

و موت أبيه كان((صدمة صاعقة زعزعت كيانه ونبهته إلى فاجعة المآل و المصير))[17].

فقد رأى بأم عينيه فعْل الموت في أبيه .خمدت أنفاسه،واستكان لقهر الموت ،والكائنات كلها تخرّ صاغرة للموت.الأم تبكي طفلها الذي اختطفه الموت بعنف،حتى الطيور، تخرس،(ويجمد النشيد بصدرها)،حين ترى(طيف المنون).

فهذه الصورة ترسم ملامح الفاجعة، وهي لحظة شعرية. الشعر فيها إيقاع للمراثى،

قال الشابي في قصيدة (يا شعر): أَرَأَيْتَ شُحْرورَ الفَلا، مترنّما بين الغصونْ

جَمَدَ النّشيدُ بصدره،لما رأى طيْفَ المنونْ

أَرَأَيْتَ أمّ الطّفل تبْكي ذلك الطّفلَ الوحيدْ

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

لما تناوله بعنف ساعدُ الموْت الشّديد[18]؟

لم يكن الشابي متأهبا للانفتاح على عالم سديميٍّ لأنه كان مازال شابّا يحلم بنضارة الحياة.فالموت عنده يعني الغياب الأبديّ عن الحياة و الاختفاء القسري و السكون المطلق والصمت الرهيب. والموت قهر للحضور و الحركة و الاكتحال بجمال الغاب،فضاءًا شعريّا، يتحرّر فيه من قيود المجتمع . فتلبّسه الانكسار، وأذعن لجبروت الموت، زمن لحظة الانكسار، و انتهى الاذعان إلى الاقرار بالحتمية ، فترجّى الموتَ لأنّ النفس تشبّعت بالقلق والضياع و الاغتراب .

فلم يعد بالإمكان الانتصار لأغاني الحياة:

جَفَّ سِحْرُ الحياة يا قلبي الباكي فهيّا نجرّب الموت : هيّا [19]

وهكذا استمر سؤال البداية و النهاية واستمر معه تدفق الاحساس بالاغتراب :

نَحْنُ نَمْشي ، وحولنا هاته الأكوا نُ تمشي... لكن لأية غايـة

نحْنُ نشدُو مع العصافير للشّمس وهذا الربيعُ ينفخُ نايَـة

نحْنُ نتلو روايةَ الكوْنِ للموْتِ ولكنْ ماذا ختامُ الرّوايـة

هكذا قُلتُ للرّيح فقالتْ : ((سَلْ ضَمير الوجود: كيف البدايةْ ؟ [20]

إن الاندفاع في استحضار الموت ، ذهنيا ، من خلال سؤال البداية و النهاية إقرار بحتمية المصير، ولكن الشابي رفض أن يعيش في((دنيا ميتة)) قبل المصير المرتقب بالموت :

ويعيشَ في كوْنٍ عقيمٍ ، ميّتٍ قد شيّدتهُ غباوةُ الأحقابِ [21]

ولهذا بدأ يضمحل الإحساس بالوجود في الحياة ، وتملّكه الشعور القوي بالاغتراب .و الاغتراب، كما يعرفه ايريك فروم Eric.f: ((.. نمط من التجربة يعيش فيها الانسان نفسه كغريب ... انه اصبح غريبا عن نفسه ، انه لم يعد يعيش نفسه كمركز لعالمه)) [22]

قال الشابي :

إني أنا الرّوح الذّي سيظل في الدنيا غريبْ[23]

أصبحت الحياة اغترابا، فَقَدَ فيها الشابي إحساسه بالوجود،و مركزه في صنع أفعاله وأحلامه فأصبح الموت حياة أخرى، يستعيض بها عن المفقود الممكن،و الحياة من غير أحلام حياة ميتة أخرى:

والحياةُ التي تخرّ لها الأحلامُ موتٌ مثقلٌ بالقيـودِ[24]

والموت،على حدّ تعبير هايدجر:

((هو الممكن الذي يجعل بقية الممكنات كلها غير ممكنة))[25]

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

والحياة((وكل ظاهرة [في شعر الشابي] تحمل المعنى و المعنى الآخر))[26]، و قد بات معروفا أنّ الخطاب الشعري هو ذاك الخطاب ((الذي يقول شيئا و يعني شيئا آخر))[27]، فالحديث عن الموت ، يقتضي الحديث عن الحياة.

ذلك أن الانسجام يولد من رحم التناقض ، والعالم كله مكون من عناصر متقابلة[28] ، كما يرى ك.صابنة k.sabina :الحياة والموت والنور و الظلمة،والليل والنهار والمهد...واللحد والشمس و القمر و الربيع و الخريف و البداية و النهاية...إلخ .

و شعر الشابي يزخر بطاقة من الايحاء والتضمين الدلالي قائمَيْن على التحوّل من الرهبة من الموت إلى الرغبة في الموت في لحظة شعرية ، يمتنع فيها الشاعر عن ترويع الذات .فيشخص الموت في أبهى صورة كما ارتسم في مخيّلة الشابي ،فطفا على خطابه الشعري.

وكأنه يقول:((سوف أموت و أعود إلى الحياة من جديد))

يقول الشابي في قصيدة (إلى الموت)[29]:

إلى المَوْتِ ! يا ابْنَ الحياة التعيسَ ففي الموتِ صوتُ الحياة الرخيمْ
إلى الموت ؟ إن عذّبتك الدهورُ ففي الموت قلبُ الدهور الرحيمْ
إلى الموت ! فالموتُ روحٌ جميل يُرفرفُ من فوق تلك الغيومْ
ففي عالمِ الموتِ تنمو الحياةُ رداء الأسى ، و قناعَ الظلامْ

إن الموت في الأبيات السابقة لم يكن انتهاء للحياة و لا انتهاء وجوديّا لأن الذات انتصرت على الخوف من الموت ، وانتصرت على الفناء بالخلود:

هو الموتُ طيفُ الخلودِ الجميلُ و نصفُ الحياة الذي لا ينوحْ
هنالك...خلف الفضاء البعيد يعيش المنونُ القويُّ الصبوحْ
يضمُّ القلوبَ إلى صدره ليأسُوَ ما مضّها من جروحْ
ويبعثَ فيها ربيعَ الحياة و يُبْهجُها بالصباح الفروحْ[30]

ينتهي عطب الحياة بالموت.وتتحرر الذات من سجنها ، و تعود إلى أصلها العلويّ ، حرة غير سجينة .وتلك كانت أمنية الشابي :

ليْتني، لمْ أزلْ .كما كنتُ ضوءًا شائعًا في الوجود غيرَ سجينْ[31]

و يحتفي الشابي بالانتهاء من الحياة إلى الموت، و يؤسّس هذا الاحتفاء لارتقاء الذات، وخلاصها من الأرضية ، بكل دلالاتها ،و انتشاء الروح بعودتها إلى برجها العاجي.

إذ يقول الشابي في قصيدة:(نشيد الجبار)[32]أو (هكذا غنى بروميثيوس):

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

أمّا إذا خَمَدتْ حَياتي ، و انْقضى عُمُري و أخْرستِ المنية نائيِ
وخَبا لهيبُ الكوْنِ في قلبي الّذي قدْ عاشَ مِثلَ الشُّعلةِ الحمراءِ
فأنَا السّعيـدُ بأنّني مُتحوّلٌ عنْ عَالمِ الآثامِ والبغضاءِ
لأذوبَ في فجْرِ الجمالِ السّرْمديّ وأرْتوي منْ منْهل الأضواءِ

إنّ استدعاء الشابي للرمز الأسطوري (بروميثوس) رمزا شامخا بعودة الحياة بعد الموت ، بالتجلد و التحدي و اليقين بهذا التحوّل من الحياة إلى الموت و من الموت إلى الحياة ، رافَقَهُ وعيٌ بهذا التحوّل الممكن ، من (عالم الآثام والبغضاء) إلى عَالم، يَنْعمُ فيه بالسعادة و السكينة و الهناء الروحي :

إلى الموْت ، لا تخْشى أعْماقهُ ففيها ضِياءُ السّماء الوديعْ[33]

هذه الصيرورة الوجودية للإنسان ،تنسجم مع اللحظة الشعرية و الشعورية التي (تفجّرت) في قلب الشاعر ، و تناغمت مع لحظة الانتشاء التي أبداها في الأبيات السابقة.

وتوحي هذه الرغبة الاستعجالية عند الشابي ، في التحول من وضع إلى وضع آخر ، أي التحول من الحياة إلى الموت بأن الشابي كان على وعي حادّ بالصيرورة الوجودية للكائن البشري ، وأنّ حبّ الموت يمكن أن يكون غريزة كغريزة حبّ الحياة !، و لذلك ،فلا خوف على الحياة وعلى الانسان من الموت لأن الموت ليس نهاية مطلقة . فالموت كما يرى ميخائيل نعيمة ((درب من دروب الحياة)) و لهذا لم يبقى سؤال الموت مؤسسا على الخوف القبلي من الموت. فالشابي ، تهيأت ذاته للموت باعتباره حتمية وجودية ، شرّعت له الأديان السماوية في نصوصها المقدّسة ، فامتلأت نفسه بهذا التهيأ النفسي و الفكري و لكن توقعات الموت هو الذي يحدث الرعب والفزع و الرهبة في نفوس البشر ، و لهذا يرى أمل مبروك أنه ((ليست خشيت الموت من الحكمة الصحيحة في شيئ .فما يدريك ألا يكون الموت خيرا عظيما ، ذلك الذي يلقاه الناس بالجزع كأنه أعظم الشرور))[34]، و هو لا يعدو أن يكون انتقالا من حياة المهد إلى حياة اللحد.

واللحد تقويض للحياة المطلقة ، و تمهيد للإيمان بيقينيات المطلق ، فحين ينشد بالشابي اليأس والقنوط ، يستدعى على عجل فكرة الحضور و الغياب ، الحضور بالولادة و الغياب بالموت ، والموت يغزو الحياة بحلمها فتتلاشى في نفس الشابي الأمانيّ و الأحلام .وذلك ما بشر إليه البيت الثالث من الابيات الثلاثة السابقة :

فقل لي : ((ما جدوى الحياة و كربها و تلك التي تذوي ، وتلك التي تنمو))

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

فالشابي ، يتخذ من فكرة المساواة بين الحياة و الموة أو لنقل تدنيس الحياة على حساب الموت ! ولهذا كان أقل احتفاء بالحياة على الرغم من أنه كان يملك رؤية حلمية كبرى في لحظة الانتشاء الروحي ، لأنه كان يخضع للحظة الشعورية الراهنة ، فتطغى حدّة الفجيعة أحيانا ، و تنتفي أحيانا أخرى . فهو يعيش اللحظة الانفعاليةو نقيضها ، و يحمل في قلبه الحياة و الموت نتيجة إحساسه بضيق فاجع ((و ما الرومانسية في الأصل سوى شعور بضيق فاجع ، تجيش به صدور تحلم بالاتساع . فقلق الشابي هو ما ينتاب الأرواح الكبيرة في كل زمان و مكان عندما تقعدها عن الفعل تفاهة الأشياء وتواصل الوحدة القايسة التي منها تبدأ و إليها تؤول))[35] .

و بهذه التناقضات الانفعالية في الموقف ، يعبّر الشابي عن مأساته الشخصية بحضور الموت وما يكشفه من غموض في مجابهة الموت أو الإقبال عليه . وهو ليس تناقضا في الموقف بقدر ما هو تعبير عن حالة شعورية راهنة .ففي النص الواحد ، تبرز ذات الشاعر ، الحالم بالمستقبل، استشرافا و انتشاء بالذات، و الذات أخرى قانطة و بائسة استبد بها الاغتراب ، فأسكت فيها (أغاني الحياة) ، وأضحت من خيالها الرؤية الحلمية . و الاغتراب حالة شعورية و مضمون فكري ووجودي و روحي في شعر الشابي ، يمر عبره مخزون رؤيوي و معرفيّ وتراكم دلاليّ عن الموت ، وخطاب الموت ، لا يمرّ هن طريق اللغة . فقط . ولكنه يمرّ عبر الايحاء و الرّمز و الأساطير . أيضا .

فقد كشف لنا الشابي عبر هذه الآليات الشعرية أنه ((كان مصابا بداء الوجود ، يثور فيه الشوق إلى الحياة . ويتردى من دونها بعاهات الواقع و مباذله حتى أصابه ضرب من العياء و اليأس ، و بات يغيّر عن الشيئ ، وكأنه يعبّر عنه و عن ضده في آن معا [الحياة و الموت] ،يسفر وجه و يضمر وجه ...لا يعادل شغفه بالحياة إلا خوفه من الموت ...و حول ذلك كله ،يطيف شبح الزمن.ذلك الرحم العجيب الذي يحتضن الحياة و الموت))[36] .

و الشابي ، كان ، بهذه الثنائية المتجاورة (الحياة و الموت) ، ((يعبر عن اللحظة القائمة و اللحظة القادمة و مظاهر الكون كلها تعاني داء الوجود ... و الاشياء موجودة في اللحظة الواحدة))[37] و اللحظة القادمة أي الموت أو النهاية هي التي تنكد على الشابي حياته ، و تشعره بلا جدوى الحياة ، و الانكسار أمام الموت :

و الربيع الجميل في هاته الدنيا خريف بذوى رفيف الورود[38]

حديث عن الحياة و الموت أي الصيرورة التي ينتهي إليها مآل الانسان ، و حديثه عن الربيع هو . أيضا . حديث عن الحياة و الموت أي الزمن الذي يولّد الفاجعة بالنهاية و البلى ، و يزرع اليأس و القنوط و يجعل الإنسان ، يترقّب الموت و الترقب المستمر للموت شكل آخر من

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

أشكال الموت . و هذا العطب الذي يحدثه الزمن بالهلاك و الموت و النهاية ، يجعل الشابي يشعر بالكآبة و الاغتراب ،فيقنط و تنتهي به هذه الحالة الشعورية إلى مأساة ، عبّر عنها في مجموعة من النصوص لعل أبرزها ، قوله :

مالي يضيق بي الوجود وكل ما حولي رحيب
مالي وجمت وكل ما في الغاب مغرّد طروب
مالي شقيت وكل ما في الكون أخّاذ عجيب[39]

ففي شعر الشابي ،يتردد كل لفظ سلبيّ عن الموت و مظاهر الكون كلها تحمل في ذاتها ، ملامح الحياة و الموت ،كان الشابي يتأمل تلك المظاهر و يعاني بقرحة و عذاب المصير المحتوم :

قضّيتُ أدوارَ الحياة مفكِّراً في الكائنات، مُعذَّباً مهوما
فوجدتُ أعراسَ الوجود مآتِماً ووجدتُ فردوس الزَّمان جحيما[40]

وفي قصيدة (في ظل وادي الموت) ، ينتهي الشابي إلى الاستسلام بالمصير الذي تنتهي إلى الفاجعة التي عاشها في الحياة ، و أضناه منها طول العذاب الذي لم يستطع أن يقهر بالأحلام والتسامي و بالأحلام.

جفّ سحر الحياة ، ياقلبي الباكي
فهيّا نجرب الموت. هيّا[41]

و الأحلام الجميلة التي لم يستطع أن يتسامى بها إلى حدّ الرؤيا الشعرية التي اختزنها خياله ، تحولت إلى حلم آخر ، استحضر به ماضيه الروحي قبل ان يفد إلى هذه الدنيا فيصبح سجينا فيها ، يسري عليه لغز الحياة و الموت و الزوال بالموت :

ليتني لم أفدْ إلى هذه الدُّنيا ولم تَسْبَحِ الكواكبُ حولي
ليتني لم أزلْ كما كنتُ ضوءا شائعاً في الوُجُودِ غيرَ سَجينِ[42]

إن الشابي لا يحتفي بمباهج الحياة الا بقدر ما تنتشي بها نفسه بلحظة انفعالية عابرة ، ثم سرعان ما تشخص صورة الموت في خياله لتعكر عليه تلك اللحظة الزمنية الجميلة التي تسامى فيها الحبّ وتسامت فيها الأحلام الراهنة ، و المتهم هو الموت أي الزمن الذي يعبث بكل لحظة جميلة ، يعيشها الشعاعر أو يستحضرها من ماضيه الطفوليّ الذي يعجّ بلحظات النشوة ، وتجارب الفرح بالجمال و الحبّ :

أيها الموت، أيها القدر الأعمى قفوا حيث انتم أو فسيروا
ودعونا هنا تغني لنا الأحلام والحب والوجود الكبير

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

~~~

وإذا ما أبيتم فاحملونا ولهيب الغرام في شفتينا
وزهور الحياة تعبق بالعطر وبالسحر والصبا في يدينا[43]

إن الزمن الذي يعبث بمباهج الحب و الجمال ، ويحوّلهما إلى سراب و بلى هو الذي يجعل الشاعر أبا القاسم الشابي ينكفء على ذاته بالعزلة و الكآبة و الشعور بالاغتراب ، لأن الموت ظلّ ماثلا في نفسه وأصبح موضوعا للتفكير . و هذا ما عمّق شعوره بالاغتراب الروحيّ ، فتأكد هذا الشعور بتأثير ذلك التفكير :

مهما تضاحكت الحياة فإنني أبداً كئيب
إني أنا الروح الذي سيظل في الدنيا غريب[44]

وهذا الشعور العميق الذي أبداه الشابي إزاء عجزه عن مواجهة مصيره الفردي المحتوم ، فلم يكن أمامه بدّ من أن يرثي ذلك المصير ، و لأن الموت كان موضوعا للتفكير ، كما سبقت الاشارة إلى ذلك ، فقد وظف الشابي كلّ وسائل التعبير التي يرسم بها صورة الموت ، فانتقى من أجل ذلك الصورة و الرمز و(اللفظة النفسية) المشحونة بدلالات الموت أوتنتمي إلى حقل دلالي هو الموت أو يحيل على الموت بالإيحاء أو الرمز، و الزمن ((باعث على التفكير ، داع إلى التأويل لأنه يخفي أكثر ممّا يقول بل لا يكف عن القول أبدا))[45] . و الألفاظ في الرمز ((...محمّلة بدلالات جديدة غير التي وضعت لها أصلا))[46] ، و قد سار الشابي في هذا المنحنى الرومانتيكي الذي ينسجم مع حالته الشعورية التي تنتهي إلى الافضاء بكل ما يموج في عالمه الداخليّ من رؤى شعرية عن الموت و في يقينه ((أنّ اللغة مهما بلغت من القوة الذي يشمل خلجات النفوس الانسانية و أفكارها و أحلام القلوب البشرية و آلامها و كل ما في الحياة من فكر و عاطفة و شعور))[47]، و لذلك ، لجأ الشابيّ إلى مابه يستطيع ان يشبع النصّ الشعريّ بصور ، تبرز انفعاله الراهن حيث يسبدّ به التوجس من الموت باعتباره كابوسا مرعبا ، يطارد الإنسان أنّى ارتحل ، ويفسد عليه انتشاءه ، ب(ألحان الطيور ، ... و ابتسامات الحياة) ، و القبور شاهدة على أنّ الموت يأتي على الجميع ن و يخرس من تستهويه ألحان الطيور و مباهج الحياة :

إن من أصغى إلى صوت المنون... وصدى الأجداث
ليس تستهوية ألحان الطيور
بين أزهار الربيع الساحرة

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com
~~~

وأبتسامات الحياة،.. السافرة

عن جلال الله !

بئست الأفراح ، أفراح الحياه

إنها أحلام! [48]

إنّ كثافة حضور الموت في شعر الشابي عنوان على كثافة حضور الاغتراب و الحزن و الكآبة في نفس الشابي . فهو لا يفرح إلا ليكتئب ، و لا يكتئب إلا ليزداد اكتئابه تضخما ، و مع تضخّم الاكتئاب تطفو إلى سطح خطابه الشعريّ سوداوية ، تنمّ عن توجسه من الزمان و الصيرورة و النهاية و الاختفاء ، و الانقطاع عن الاتصال بالخلود . فسعى إلى معانقة اللازمان بالخيال و بالحلم و بالرؤى الشعرية ، يواجه بها العبث و الفناء و كأنه يقول :أرفض أن أحيا ميتا على أن أموت و أنا حيّ بالخلود.

هوامش البحث:

1- انظر ،jaen fontain،الموت و الانبعاث في أدب توفيق الحكيم، ترجمة محمدقوبعة ،الدار التونسية للنشر ،1984م ص7.

2-أنظر المرجع نفسه.

3- أنظر المرجع نفسه.

4- وردت هذه القصيدة في ديوان (أغاني الحياة)للشابي بدون عنوان و بهذا الشكل (؟) .الطبعة الأولى دار صادر.بيروت.لبنان 1999م.ص.146

5- قصيدة (قلت للشعر) ص107

6- قصيدة(أغنية الأحزان).ص.58

7- قصيدة(القصيدة نفسها).ص.57

8- قصيدة(الاعتراف).ص.218

9- قصيدة(الأبد الصغير).ص .129

10- قصيدة(ياشعر) ص.51

11- قصيدة(يا موت).ص .119

12- قصيدة(طريق الهاوية).ص.136

13- قصيدة(صوت تائه).ص.101

14- أمل مبروك، فلسفة الموت ،دار التنوير.بيروت.لبنان.الطبعة الأولى .2011م.ص44

15- قصيدة(زوبعة في ظلام).ص217.

16- عبد السلام المسدي ،قراءات الشركة التونسية للتوزيع.1981م.ص.51

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

17- المرجع نفسه و الصفحة نفسها.

18- قصيدة(يا شعر).ص.49

19- قصيدة(في ظل واد الموت).ص.173

20- قصيدة(في ظل واد الموت).ص.172

21- قصيدة(الدنيا الميتة).ص.228

22- الاغتراب عند ايريك فروم .ترجمة محمد حسن حماد. المؤسسة الجامعية للدراسات و التوزيع و النشر. الطبعة الأولى 1995م.بيروت .لبنان.ص.37

23- قصيدة(نشيد الأسى).ص.106

24- قصيدة(طريق الهاوية).ص.136

25-أنظر،أمل مبروك ، المرجع السابق.ص.97

26-إليا الحاوي،الطبيعة و الزمن أو رموز الحياة و الموت في شعر أبي القاسم الشابي.مجلة الفكر عدد خاص.أبو القاسم الشابي .العدد4. 1975م.تونس.ص.101

27-Michel Riffaterre,(sémiologie de la poésie) edition,seuil,1983,p11.

28-أنظر Roman.jakbson ,huit questions de poétique , Edition du seuil, 1977.p31

29-الديوان .ص97.

30- الديوان .ص.98

31-القصيدة (الأشواق التائهة)ص.142

32-الديوان .ص.215

33-قصيدة(إلى الموت) ص.98

34- دار التنوير ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى ، 2011نص.44

35- عبد العزيز قاسم ، الشابي بعد الأربعين سنة ، مجلة الفكر، العدد 4 ، عدد خاص ، أبو القاسم الشابي ، 1975، ص.95

36- إليا الحاوي ، الطبيعة و الزمن أو رموز الحياة و الموت ، الفكر ص100 .

37- المرجع نفسه ،ص101 .

38- الديوان نص45 .

39- قصيدة (نشيد الاسى) ، ص106 .

40- قصيدة (صوت تائه) ، ص101 .

41- الديوان ،ص173 .

42- الديوان ، قصيدة (الأشواق التائهة) ، ص142 .

43- الديوان ، قصيدة (أغاني السكرى) ، ص198 .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

44- – قصيدة (نشيد الاسى) ، ص106

45-. Paul Ricœur, Le conflit des interprétations, éd , Seuil, Paris,1969,p32.

46 - Jean Cohen - Le Haut langage, théorie de la poéticité, José ,sorti, 1995,p.133. -

47- أبو القاسم الشابي ، الخيال الشعري عند العرب ، الدار التونسية للنشر ، النشرة الثانية ، 1983 ، ص.25

48- الديوان ، ص228 .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com